الحلقة (١١)

انتهيت في حلقة سابقة إلى الحديث عن **الخصيصة الأولى** من خصائص الأخلاق الإسلامية وهي **التعميم والتفصيل**

هناك أخلاقيات سيئة منها مثلاً: **تجسس الناس بعضهم على بعض** وإطلاعهم على عورات بعض، فهذا مما نهي عنه، ومما منع النظر في العورات أو محاولة كشف ما يخفونه الآخرين من أمورهم المستورة عادة التي أمر الله عز وجل بسترها.

كذلك من الأمور المذمومة: **الغضب في غير الحق.**

وكذلك **الفجور في المخاصمة أو في القول،** أيضاً منها **الرياء وقصد غير وجه الله سبحانه وتعالى بالعمل،** والرياء أمر دقيق أحيانا يدق عن الشعور ويلقيه الشيطان أحياناً في القلوب، ليزين من خلاله الإنسان أعماله حتى يراه الناس، فلذلك ورد التحذير منه، وتذكير الناس بالتوبة منه والاستغفار منه (اللَّهُمَّ إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك من الذنب الذي لا أعلم) .

يذهب بإذن الله أثر ما قد يعرض للقلوب من رياء مما قد لا تسيطر عليه، لأن الرياء يأتي في شكل إلقاء سريع يحاول الشيطان من خلاله إفساد عمل العبد ..

ومن ذلك ومن أسوئه **النفاق،** سواء كان "النفاق الاعتقادي" وهو أسوأ شيء، من يخادع الله سبحانه وتعالى ويظهر الإيمان ويبطن الكفر، { يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ } ، { وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلَّا قَلِيلًا }.

"وقد يكون نفاقاً عملياً" يمارس من خلاله أعمال المنافقين،لأن جذر النفاق هو الكذب والغدر والفجور وغيره، لأنه ينقض عهده مع الله سبحانه وتعالى "هذا المنافق الاعتقادي"، ويكذب على الله سبحانه تعالى، فمن كذب على الخلق ولم يكذب في إيمانه وصدق في إيمانه، ولكنه يكذب مع الخلق، هنا صفة عملية من صفات المنافقين، فيكون فيه صفة من صفاتهم، ولكن لا يعني أنه من أهل النار الذين قال الله عز وجل عنهم { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ }، أصحاب هذا الوصف أو هذا الجزاء أولئك الذين كذبوا على الله، فأظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، ولكن من كذب على الخلق فعمله سيء، وينبغي أن يتوب إلى الله منه، وهو خطيرٌ عليه، لأنه كذب على الخلق، ربما يقوده ذلك لما هو أعظم، لذلك جاء التحذير : (إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)، لذلك لا يستهين الإنسان بالكذب على الناس، وهذا مذموم وسيء، ولكنه منكر ولا يخرجه من الإيمان.

وكذلك مما ذم من الأخلاقيات: **المراء والبذاءة (بذاءة اللسان)،**

وكذلك **الذل لغير الله** سبحانه وتعالى فالمؤمن لا يذل لغير الله.

الأخلاق كثيرة ومتعددة وكما قلت هي شاملة للحياة الإنسانية ومستغرقة للحياة كلها لذلك كان الإسلام كله آداب وخلق، خلق مع الله سبحانه وتعالى وخلق مع الخلق كافة بكل أصنافهم.

❖ الخصيصة الثانية: الشمول لأفعال الإنسان:

وهي وجه أخر للتعميم والتفصيل، فالتعميم والتفصيل لاحظناه من ناحية القيم نفسها، وأنها جاءت عامة وشاملة في ذاتها، والشمول بأفعال العباد نظرنا إليه من حيث الفعل الإنساني، وأنها وجهت كل أفعال الناس ما كان منها لله سبحانه وتعالى وما كان منها للأخلاق..

ولذلك جاءت الأخلاق منها ما هو قيم عليا أو أخلاق أساسية التي هي مثل التوحيد والعدل فيما يتصل بالله سبحانه وتعالى والإحسان ونحوه.

وهناك قيم أشبه بالقيم الحضارية التي يدخل في نطاقها كل شي من الخلق وحتى علاقات المسلم مع الكافر فحتى هذه يدخلها الأخلاق بل هي مقامة في الإسلام على الأخلاق والعدل والإحسان، كذلك الأخلاق شاملة لحياة الإنسان كفرد فجاءت بالإعمال التي ينبغي عليه أن يعملها، والأخلاق التي ينبغي عليها أن يبتعد عنها.

كذلك في علاقات المجتمع بعضه مع بعض، وسبقت في النقطة السابقة الإشارة إلى قول الله عز وجل { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ }، { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ }، { وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ }، { وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا }، { وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ }، فهذه أيضا تدخل في العلاقات وتوجه العلاقات كلها وجهة سليمة، وتنهى عن الشيء الآخر {وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا }، فهنا أيضا أخلاقيات فيما بين أفراد المجتمع، حتى تدفع عنهم الممارسات السيئة،(فلا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله أخواناً).

كل صفة ذميمة يمكن أن تؤدي إلى القطعية منهي عنها..

❖ الخصيصة (الثالثة) وهي قيامها على التقوى :

لأن الأخلاق ليست أخلاق اجتماعية إنسانية فقط، بمعنى مؤسسة على المصلحة الإنسانية، فهذا هو الفرق في الأساس، يعني مثلا يلفت انتباه الناس أن الغربيين مثلاً لديهم دقة في الوقت، ووفاء مثلا بعقد، كعقد عمل مع الشركة تجد أنها تفي به، في حين قد لا يتوفر هذا عند المسلمين، يتعجبون من هذا لماذا؟

لأن هذه الأمور بنيت على أمرين: ١.على المصلحة والمصلحة جاء معها٢.الجزاء،

الشركة تعرف أنها لو تجاوزت القانون وقعت تحت طائلة العقاب، وكذلك من يتعاقد معك يعرف أنه

لو أخطأ سيحاكم وسيقع عليه الجزاء، فمن مصلحته أن يفي معك، فالدافع إلى الوفاء بالعهود، والوفاء بالعقود، والالتزام وعدم الإخلال بشيء، وعدم الغش الدافع له المصلحة والخوف من إيقاع الجزاء من طائلة القانون، ولو سلم من طائلة القانون لم يهتم بذلك..

وهذا فرق عظيم بين تأسيس الأخلاق في الإسلام، وتأسيس الأخلاق لدى الآخرين:

فالأخلاق لدى الآخرين مؤسسة على المنفعة، لكن لدينا أسست على المنفعة الدنيوية والأخروية فمنفعة الإنسان مع الله عز وجل أولاً، فهي التي يتوقف عليها برحمة الله نجاته أو هلاكه عند الله سبحانه وتعالى، فجزاؤه ليس جزاءاً تشريعياً فقط، لا شك أن الإسلام سن جزاءًا تشريعياً لمن فرط في المعاملات مع الناس، لمن خان الأمانة مع الناس، لمن سرق، لمن زنى، سن عقوبات وجزاءات وسيأتي الحديث عنها، ولكن في المقابل أعطى أجراً عظيماً لمن عمل أو ترك شيئاً ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى.

فمن ميزة هذه الأخلاق الإسلامية أنها مؤسسة على ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، وأن مصلحة المسلم الدنيوية لا تنفك عن مصلحة المسلم الأخروية على الإطلاق، ولذلك يترك كثيراً مما قد يكون فيه فائدة عاجلة لأنه محرم.

مثلاً المسلم الأصل أن لا يرابي لماذا؟ لأن الربا مسخطٌ لله سبحانه وتعالى، فالربا قد يكون فيه مكاسب، والاحتكار قد يكون فيه مكاسب وتتعاظم مكاسبه على التاجر، لكن تجد أن التاجر المسلم لا يعمل هذه الأعمال، المسلم الملتزم وليس كل مسلم، فمن المسلمين من يتجاوز ومنهم من يسيء ومنهم من يظلم،

فإذن الأخلاق هنا في الإسلام تقام على ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، وعلى جزاء دنيوي وأخروي، ليس جزاء أخرويا فقط كما يدعي البعض ويقول: إن الدين ما فيه إلا جزاء أخروي ولا يعاقب في الأمور الدنيوية، هذا غير صحيح لو كان كذلك لكان مثالياً وخيالياً لماذا؟ لأن الإنسان يغلب عليه الحس، فإذا لم يحصل الشذّاذ على ما يردعهم بالجزاء، فلم يبالوا بهذا الشيء و سيحبوا الدنيا و يعجلونها على الآخرة، فالآخرة مؤجلة ولا يمكن أن يلتفت إليها إلا من كان مؤمنا بها

أما من كان إيمانه ضعيفاً فتغلبه نفسه، فلذلك جاءت الجزاءات، فالأخلاق الإسلامية مؤسسة إذن على الإيمان وعلى الجزاء، والجزاء كما قلت في الإسلام ليس جزاءاً أخرويا بحتا كما يدعي البعض أو يزعم إن الجزاء في الأديان هو أخروي، لا، هو جزاء أخروي وجزاء دنيوي، فالجزاء الأخروي أساسه فضل الله ورحمته..

لكن نحن ننظر أيضا إلى ما أسسه الإسلام، لأن الإسلام راعى الواقع الإنساني، فواقع الإنسان كما ذكر الله عنه { إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا }

وكما قال صلى الله عليه وسلم (لو أعطي الناس بدعواهم لادعى رجال دماء رجال وأموالهم) فكان لابد من حزمٍ في الجزاء، ومن تحديد أنواع منها بحسب الجرائم التي قد تقع من الإنسان فتردعه، إن لم يردعه إيمانه ردعه حياؤه من المجتمع، وخوفه من سلطة المجتمع، إن لم تردعه سلطة المجتمع ردعته السلطة بما تقيم عليه من جزاء،

فهذه الجزاءات محددة ومفصلة، منها ما قد حددها الله (كعقوبة السارق وعقوبة الزاني، ونحو ذلك)..

ومنها ما هو مفتوح لاجتهاد الإمام، يجتهد فيه الحاكم بحسب وضع المعصية والاعتداء على الآخرين، بحسب تلك الممارسة الأخلاقية السيئة، فيسن له بحسب الاجتهاد ما يلائمه، أو يحكم فيه بما يلائمه بما يردع هذا الذي تجاوز وانتهك الأخلاقيات الاجتماعية، لدينا أخلاقيات اجتماعية يجب أن ترعى، فمثلاً هناك من الأخلاقيات التي تهدد أحياناً الاجتماع وممكن تثير التشاحن، مسألة القذف، أن إنساناً يقذف إنساناً آخر ويتهمه بأمر مشين، هذا القذف حده إذا كان قذفا في عرضه بُيّن حده في الكتاب العزيز، ومن آذى آخر بشتم وسوء فيعاقب بحسب ما صدر منه بحق هذا الآخر، وإن لم تأتِ أحياناً عقوبة محددة في الشرع، فهناك ما يسمى عند العلماء بحد التعزيز، وهو مجال مفتوح وواسع ويجتهد فيه الحاكم بحسب ما يلائم كل حادثة أو حادث أو جريمة من الجرائم بما يلائمها.

فالشاهد أن الأخلاق في الإسلام ليست أخلاقا كما يقولون طوباوية أو مثالية، لا تنزل إلى أرض الواقع، ولا إلى طبيعة الناس وإلى فطرتهم، وإنما هي متلائمة مع هذا، يقضى فيها بما يلائم حال الناس ويحفظ عليهم اجتماعهم.

(رابعاً) من خصائص الأخلاق أنها موافقة للفطرة البشرية:

فالفطرة البشرية تحب السلام، تحب الأمن، تحب الخير، تحب الصدق، تحب الوفاء، تحب كل خلق طيب، هذا لا يعني أن الإنسان لا يفعل الأخلاق السيئة، ولكن هو يحب الصدق، ويحب أن يصدق الناس معه، وإن كان يكذب، يحب الوفاء بالعهد وإن لم يفِ بالعهد، فإذن الأخلاق جذرها محبوب وهي مغروسة في فطرة الناس، فكل هذه الأخلاقيات الطيبة التي أمر الله بها عز وجل هي مقتضى الفطرة { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ }